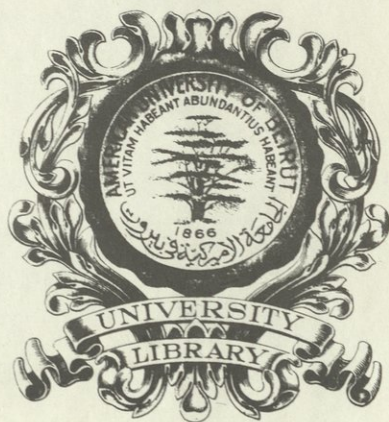


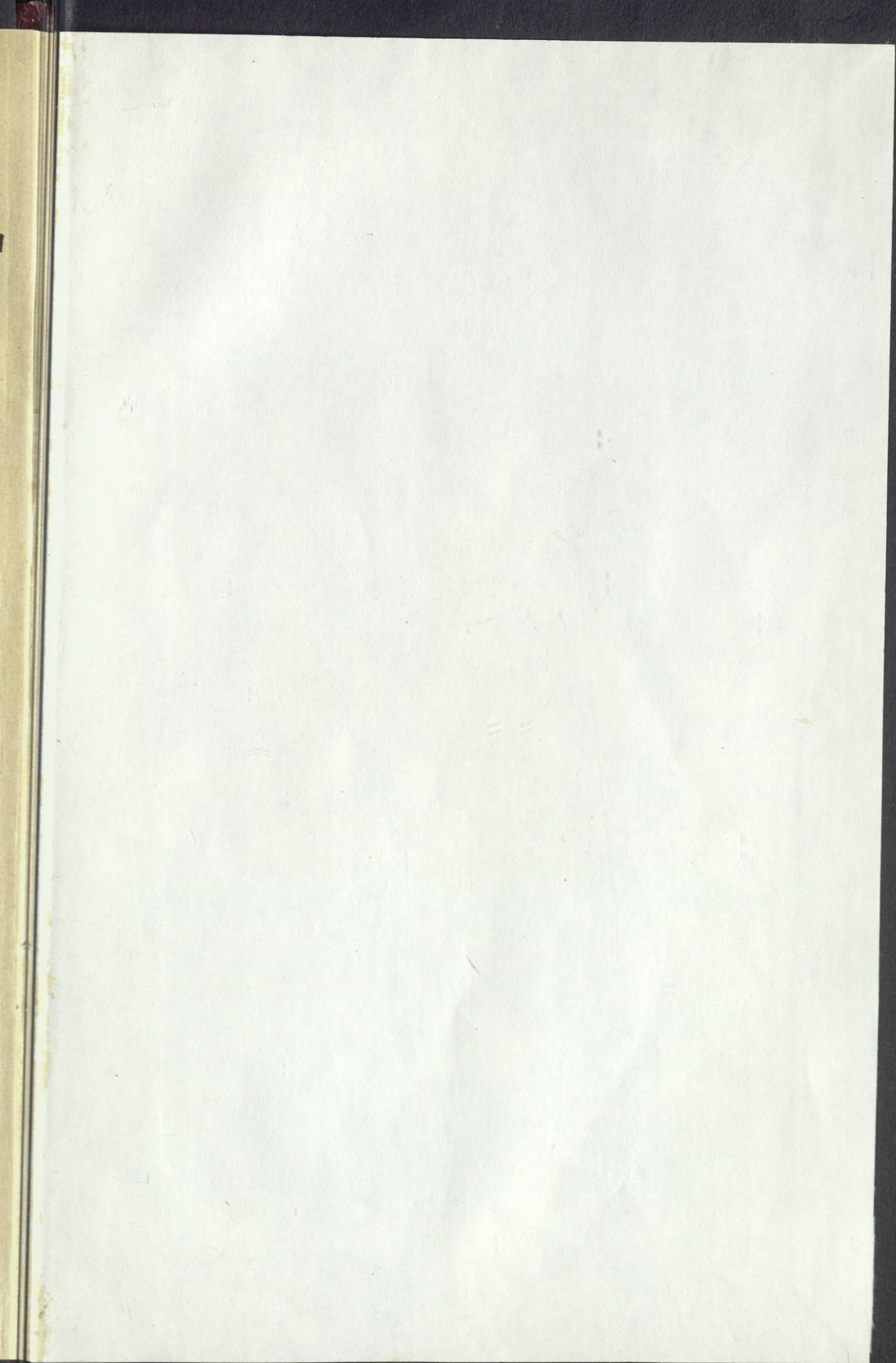
398.21
K144fA
c.1

A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY



داسات قصيدة في الادب والتاريخ والفلسفة

- ٣ -

عبدالله بن الملقف

وكتاب كيلة ودمنة

تألف

ع. فروغ

دكتور في الفلسفة

عضو الجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م

منشور من مكتبة ميمنة - بيروت

دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

398.21
K144FA
C-1

- ٣ -

عبدالله بن المقفع

وكتاب كيلة ودمنه

تأليف

ع. فروغ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

بيروت

الطبعة الثانية

١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م

منشورات مكتبة ميمنة - بيروت

مطابع الحسيني

جميع الحقوق محفوظة

الكلمة الاولى

الى ابن المقفع وحده يرجع الفضل في وضع اسس الاسلوب الادبي الذي كتب به العرب منذ اوائل العصر العباسي.

لقد عرف العرب في جاهليتهم واسلامهم الاول كثيراً من اساليب التعبير عن الآراء والافكار: عرفوا الشعور وعرفوا الخطابة وعرفوا التوشل، ولكن خصائص هذه الفنون، والقيود التي القيت عليها منعها من ان تكون مطاوعة لجميع انواع البحوث. فظل الانتاج الفكري في العرب الى اواخر العصر الاموي مقصوراً على اوجه الحياة الفطرية، وظلت قوة التعبير عن الفكر متمثلة في الثقافة اللغوية.

على ان القرآن الكريم جمع اساليب العرب واستطاع معالجة النواحي الفكرية كلها مجرية وتعمق واستقصاء. ولكن العرب - على ما يظهر - لم ينقلوا اساليبه الى النواحي الدنيوية الخالصة والى الانتاج الفكري باطلاق.

فلما جاء ابن المقفع عمد الى جميع فنون التعبير عند العرب واستنار في ذلك بنور القرآن واستفاد من لغة التخاطب والتحديث في البيئات المثقفة، ثم اشتق من هذه كلها اسلوباً ادبياً هو الاسلوب الذي شق للعالم العربي، منذ اوائل العصر العباسي، طريق معالجة الموضوعات وتحليل المشا كل والآراء على ما نعرفه في اسلوبنا الى اليوم.

ع . ف .

الطبعة الثانية « اضيف اليها مختارات من كتاب كيلة ودمنة »

اول المحرم ١٣٦٩ = ٢٣ - تشرين الاول ١٩٤٩

عبدالله بن الملقف

(روزبه بن داويه)

عبدالله بن الملقف من الادباء الذين نجح حياتهم الاولى والادوار التي مروا بها قبل ان يصبح لهم شأن ما . فكل ما نعرف عن حياة عبدالله الاولى انه فارسي الاصل لاشك في ذلك ، وان ابيه كان يدعى داويه (١) وكان الحجاج بن يوسف قد ولاء على خراج فاوس . ثم ان داويه هذا انهم في مال فضربه الحجاج بن يوسف بالبصرة على ذلك حتى تقفعت يده - تشنجت ، تقلصت راحتها فارتدت اصابعها الى باطنها - فعرف منذ ذلك الحين بلقب «الملقف» .

اما عبدالله نفسه فقد ولد في حدود عام ١٠٦ للهجرة (٧٢٤ م) بقرية اسمها «جور» وهي مدينة فيروز اباد - كما نعرف اليوم - احدى مدن فارس ، فسماه ابيه يومئذ «روزبه» (٢) . وقد قالوا ان كنية ابن الملقف كانت - قبل ان يسلم - ابا عمرو . والظاهر ان روزبه هذا نشأ في فارس على نخلة المجوس ، ثم انتقل الى البصرة في

(١) يرد هذا الاسم في المراجع المختلفة على صور مختلفة داويه ، ذاويه السخ والاقرب الى الصواب ما اثبتناه ، فان الدال المهمة في الفارسية القديمة اذا كانت مسبوقه بالفتحة تلفظ ذالا معجمة نحو بغداد قلها تلفظ ايضا بغداد .

(٢) روزبه كلمة مركبة من روز (نهار ، يوم) وبه (جيد جميل سعيد) ، وكانت في الفارسية القديمة تلفظ بكسر الباء . ولكن الفارسية الحديثة اشاعت الكسرة فصارت الباء تلفظ مالة (بين الفتح والكسر) . وربما ان العربية الفصحى لا تعرف هذه الامالة فقد اصبحت الباء فيها مفتوحة .

اوائل صباه ، نعرف ذلك من اتقانه اللغة العربية ومن تذوق اساليب العرب ومق
حسن توفيقه بين لغة المحاطبة ولغة الكتابة على ما سيأتي في موضعه من الكلام على
خصائصه الفنية .

اما سبب انتقاله الى البصرة فلم يكن ، فيما نظن ، لان البصرة كانت مدينة تذخر بالعلم
والعلماء والشعر والشعراء او بالفلسفة والمتفلسفين بل - في الاغلب - لانها المدينة
التي يعمل فيها ابوه لولادة الدولة الاموية . اما استقراره فيها فباعد فراجع الى انها
مدينة كبرى من مدن الدولة حيث تتوفر الاعمال ويسهل الدخول في خدمة الولاة
والامراء . ويبدو لنا ان روزبه اثرى في اول ايامه اثراء مذكوراً ، يشهد لذلك فقرته
وردت في عيون الاخبار لابن قتيبة (١ : ١٠ : ٢٠) هي : كان ابن المقفع محبوباً في
خراج كان عليه وكان يعتب . فلما طال ذلك وخشي على نفسه تعين (١) من صاحب
العذاب مائة الف درهم ، فكان (صاحب العذاب) بعد ذلك يرفقه ببقاء على ماله .
ولا ريب في ان امرأ ينكسر عليه مائة الف درهم من الخراج لوجل " مثر " ولعل
روزبه استعذب مال الدولة كما استعذبه ابوه داذويه من قبل ، ولكنها عوقب
على عملها .

*

والظاهر من المصادر ان روزبه « كتب » لداود بن يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان
يزيد والد داود امير العراق . فلما ظفرت الدعوة العباسية قتل المنصور يزيد
وابنه داود وقتل من كان معها .

الا ان نجم روزبه لم يتألق الا بعد ان اتصل بعيسى بن علي عم الخليفة ابي جعفر
المنصور ثم دخل في الاسلام على يديه . ولما اسلم روزبه تسمى « بعد الله » وتكنى
« بابي محمد » ، فاصبح منذ ذلك الحين يُعرف بعبد الله بن المقفع .

*

واما موت ابن المقفع فالمشهور فيه « قصة الامان » ، وذلك ان عبد الله بن علي ،

(١) المقصود اخذ سلفة بربا « فائدة »

عم المنصور ، خرج عليه . ولكن المنصور ارسل اليه ابا مسلم الحراساني فهزمه . وخاف المنصور ان يثور عمه مرة ثانية فاحب ان يستقدمه - ليفتك به - او يأمن شره على الاقل ، فيزعمون ان ابن المقفع نفسه - وكان كاتب عيسى بن علي ، اخي عبدالله بن علي وعم المنصور - هو الذي كتب كتاب الامان وبالغ في التاكيد والصرامة حتى انه لم يدع مجالاً لتأويل شيء منه الى ان قال فيه (على لسان المنصور) : «وان فأنلت عبدالله بن علي او احداً مما اقدمه معه بصغير من المكروه او كبير او الى احد منهم ضرراً سراً او علانية فانا نقضي من محمد بن علي بن عبدالله ... وقد حل لجميع امة محمد خلعي وحربي والبراءة مني ..» الا ان هذا وحده لا يكفي لان يكون سبباً لقتل ابن المقفع فان الامان هذا لا يرسل الا بعد ان يطلع عليه الخليفة ويرفعه .

وقيل بل اتهم ابن المقفع بالزندقة فقتلوه من اجل ذلك . ولكن الزندقة كانت في ذلك الحين نهمة ظاهرة ، فما السبب الحقيقي الذي قتل به ابن المقفع؟ قيل بل كان يسعى لقلب الدولة العباسية - مع بعض الفرس - لنقل الخلافة الى العلويين .

وقيل ان ابن المقفع عرض بالمنصور في كتاب كليله ودمنة . والواقع ان كتاب كليله ودمنة تعريض بكل حال ظالم - في رأي بعض الناس ، والمنصور كان كذلك - ولكن اثبات ذلك يحتاج الى تمحل بعيد .

فالسبب الحقيقي ، اذن ، لمقتل ابن المقفع كالسبب الحقيقي لنكبة البرامكة او لمصرع ابي مسلم ، لا يمكن ان يكون واحداً بل يجب أن يكون «مجموعة» من الاسباب السياسية البست ثوباً دينياً «من الزندقة» او غير الزندقة .

اما الصورة التي قتل عليها ابن المقفع فصورة تقشع منها الابدان ، زعموا ان سفيان بن معاوية الذي تولى قتله - وكان له مبعوضاً وعدواً - امر بتنوير فاسجر ثم امر بابت المقفع فقطعت اعضاؤه واحداً واحداً والقيت في التنور وهو ينظر حتى آتى على جميع جسده . وكان ذلك عام ١٤٢ هـ فيما روى (٧٥٩ م) .

العنصر الشخصي عند ابن المقفع

من العيب ان نحاول جمع عناصر الشخصية عند ابن المقفع من كتاباته ، لان كتاباته لا تمثله ضرورة ، فابن المقفع كان اما ناقلا - من لغة الى لغة - او جماعة للآراء يؤلفها في لغته . على اننا اذا رجعنا الى ما ذكره المؤرخون عنه ، واذ اعتبرنا الآثار الباقية من تأليفه وضع لنا طابعة الشخصى اتم الوضوح ، ورائنا فيه رجلا حسن العقل لا شك في ذلك ، حسن الخلق الى مدى بعيد .

اما حسن العقل فنجده في ما يلي :

(١) الذكاء الفطري = اولى خصائص ابن المقفع انه رجل شديد الذكاء بلغ بصياحه ما لم يبلغه غيره بكمولته . ان آثاره تدل على ذلك ، اصف الى هذا كله ما شهد به المعاصرون : ثم ان عقل ابن المقفع كان اكبر من علمه * - على سعة علم ابن المقفع . هذا الذكاء الفطري كسب ابن المقفع دهاء استطاع به ان ينتقل من الدولة الاموية الى الدولة العباسية وان يتقرب من اهل الدولتين على السواء وان يُقيد من ذلك كله مالا عظيما . على ان ذكاء ابن المقفع خافه في آخر الامر ، لالشيء الا لان المنصور كان يأخذ بالظنة ويقتل على التهمة ، ولم يكن عصر ابن المقفع خاليا من رجل يشي للخليفة ابي جعفر المنصور بابن المقفع او يخلق تهمة يلصقها به .

(٢) دقة الملاحظة = وابن المقفع ، مما يبدو من آثاره ، شديد الملاحظة دقيقها ، تراه - على قرب عهد العرب بالكتابة الفنية - يتناول الموضوعات المجردة في الاكثر والمحسوسة في الاقل فيجلوها ويسوق في اثناء معالجتها كل ما يمكن ان يعرض لها من مناسبة او استطراد وكل ما يتعلق بها من استفهام او اعتراض . وهو في كل ذلك يدل على قدرة عظيمة في فهم النفس الانسانية والروح الذي يسيطر على المجتمع الانساني بما لا مزيد عليه من الوضوح واستيعاب الفكر وحضور البديهة . انه يكشف في

* ربما وقع بعض الناس على حكم يناقض هذا ، ولكن هذا اقرب الى حقيقة ابن المقفع .

مؤلفاته عن نواح يعتقد الانسان انها جد قريبة وجد بديهية ، ولكن اكتشاف هذه النواحي ومعالجتها بمثل هذه المقدرة والدقة هو الذي يدل على الذكاء الفطري وعلى تميز ابن المقفع فيه من كثير من الناس .

(٣) سعة المعرفة - وابن المقفع واسع المعرفة بفنون كثيرة من فنون الاجتماع ، فملاحظاته في آثاره تدل على ان الرجل عرف فنوناً كثيرة من العلم في مختلف نواحيه . والذي ماز ابن المقفع من أقرانه المعاصرين انه جمع المعرفة من ثقافتين يتقن لغتها كل الاتقان : المعرفة بثقافة فارس الاولى وبالتالي ثقافة المشرق كله من طريق اللغة الفهلوية ، ثم المعرفة بالثقافة العربية من طريق اللغة العربية ومن الحياة في البصرة ومن الاسلام .

اما ما يشار اليه من معرفته اللغة اليونانية فلا دليل عليه ولا شبه دليل . وقد يكون الرجل يشدو من لغة قوم ويفهم بعض ما يكتب فيها ويبتدي في كتب نحوها وفي قواميسها ثم لا يقال عنه « انه يعرف تلك اللغة » .

(٤) اتزان الرأي - ويعجبك من ابن المقفع اتزان الرأي ، فمع انه معجب بآرائه إعجاباً يجعلها تفرض نفسها على القارئ او يفرضها هو عليه - فانه قليل الدعوى ، قليل التنويه بنفسه لا يميل في الحكم الى جانب من غير ان يتحفظ لما عسى ان يشب عليه من الجانب الآخر . ان ابن المقفع ينصحك باتزان الرأي في كل كتبه وفي « الادب الكبير » خاصة . ولكن لعلك تقول هذه منقولة من لغة غير العربية فاتزان الرأي للذي كتبها في لغتها الاولى ، فاليك هذه الجملة التي لا شك في انها لابن المقفع ، إنه يقول في آخر كتاب « الادب الكبير » :

« اني مخبرك عن صاحب كان اعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما اعظمه عندي صغر الدنيا في عينه . . . »

ان ابن المقفع هنا لا يقول عن صاحبه انه اعلم الناس ! بل يقول انه اعظم الناس في عينه . ثم يعود فيقول « ان رأس ما اعظمه عندي . . . » بما لا يدع مجالاً لمتورّد

ان يحاول نقض هذا الرأي ما دام ابن المقفع يقدم بين يديك ان الرجل الذي يتكلم عنه « صاحب له » وان صفاته التي ذكر كانت « عنده » عظيمة .

*

وكان في ابن المقفع - مما يتصل بذلك من قرب او بعد - مروءة صحيحة ظاهرة ، فقد كان حسن الوفاء لاصدقائه كريم الطبع في معاشرة سائر الناس .

اما حسن الوفاء لاصدقائه فظاهر في حوادث كثيرة اهمها « قصة طلب العباسيين لعبد الحميد الكاتب » ، فقد ذكروا ان عبد الحميد وعبد الله كانا في بيت واحد حينما فجأهما الطلب بعبد الحميد . فاراد عبدالله ان يفدي صديقه بنفسه فيقع هو ضحية الانقلاب السياسي كما يقلت عبد الحميد . اما كرم الطبع فباد في حوادث تذكر اتصاله باناس لم يكونوا اصدقاءه ولكنه خالقهم بخلق حسن .

*

وهناك صفات كسبها ابن المقفع من بيئته :

(١) حياة اللهو = كانت البصرة في صدر الدولة العباسية ميداناً للعلم والادب وميداناً للهو والباطل ، ولقد ركض ابن المقفع فرسه في الميدانين . جاء في الاغاني ان ابن المقفع كان ينادم مطيع بن اياس والبة بن الجباب - استاذ ابي نواس في كل شيء - وغيرهما ممن عرفوا بالبطالة والمجون ورُموا بالزندقة . ويظهر ان ابن المقفع كان يميل الى سماع الغناء وادمان الخمر - وكلا هذين عناصر من البيئة الفارسية الطارئة على البيئة العربية . وهناك قصص تروى عن ابن المقفع فيها ظرف وفكاهة وخفة روح . ولقد كان في ذلك كله مسرفاً فيما قالوا .

(٢) زندقته = وكان ابن المقفع في من رُموا بالزندقة - والزندقة يومذاك تهمة لا صلة لها باساس الدين ضرورة ، فيكفي ان يتساءل الانسان عن الغاية من فرض ديني حتى يرمى بالزندقة . ويكفي ان يكون مائلاً عن سياسة الدولة القائمة حتى يتهم بتلك التهمة .

والظاهر ان ابن المقفع لما اسلم بعد ان بلغ أشده لم يستطع ان يتجرر من عقله

القديمة وبيئته القديمة فظل يأخذ ببعض الآراء المجوسية ويوازن في قرارة نفسه - وظاهر اشاراته - بين وجوه الدين القديم ووجوه الدين الجديد . وكل ما نستطيع قوله هنا ان ابن المقفع ظل اكثر حياته مجوسياً ثم دخل في السنوات الاخيرة في الاسلام، ولكن عاش في بيئة مزدقة كالْبصرة فوجدت التهمة اليه سبيلاً بعد ان خالف الفقهاء في كثير مما يعتقدون انه من الدين .

(٣) شعوبيته = ويتبع التهمة بالزندقة التهمة بالشعوبية - وهي تفضيل غير العرب على العرب - . وليس بمستبعد ان يكون رجل فارسي كبن المقفع شعوبياً يرى فضل الفرس على العرب ، ولكن القصص والحوادث والتمحلات التي يذهب اليها المحدثون من المؤلفين بعيدة عن المنطق . قالوا ان ابن المقفع أعجبَ بالفتى البدوي لم ير من الحضارة شيئاً، وهو ينظم الشعر الحكيم البديع البليغ . فزعموا انه يستكثر ذلك عليه .

وقالوا : سأل ابن المقفع جلساءه عن اعقل الامم فاقترحوا كل امة كالفرس والروم والصين والهند ... فذمها كلها ثم قال : بل العرب افضل الامم . فزعموا ان ذلك منه تقية ومماثلة .

قد يكون ابن المقفع شعوبياً ، ولكن ليس في ما ترك ولا في ما روي عنه دليل ايجابي ولا دليل سلبي على ذلك ، ونحن لا يجوز ان نحكم إلا على آثار ما نرى .

(٤) الاشتراكية = وهذه تتبع الزندقة ولم تكن غريبة عن الفرس . ويظهر لنا ان ابن المقفع كان يشترك احياناً بما له اناساً حرموا المال . وكان مثل هذا معروفاً في البيئة العباسية بين اصحاب اللهو خاصة .

(٥) العداوة السياسية = لا ريب في ان العداوة كان مستهكماً بين المنصور وبين ابن المقفع ، ولكننا لا نعلم من امر هذا العداوة امراً حريجاً : هل كان العداوة شخصياً بين الرجلين ام انه كان ابلغ من ذلك ، كأن يكون عداوة من ابن المقفع نحو الدولة القائمة .

انتاج ابن المقفع وآثاره

يُنسب الى ابن المقفع انواع مختلفة من الانتاج ، ويُنسب اليه كتب كثيرة تضم ، فيما يرون ، اشياء من هذا الانتاج. ويحسن بنا هنا ان نقسم ذلك كله قسمين : الانتاج الاصيل كالشعر وعلم الكلام والترسل ، ثم الانتاج الدخيل وهو ما نقله ابن المقفع من لغة الفرس ، سواء علينا انقل ابن المقفع من ذلك الفكرة العامة دون النسق والاسلوب ام نقل الفكرة في نسقها واسلوبها .

أ) الانتاج الاصيل

(١) الشعر = ان الابيات التزوة المروية لابن المقفع لا تبهر عده في الشعراء الكثيرين او المقلين ، ولكن بما ان اتمام الطائي اختار له في « الحماسة » ثلاثة ابيات في الرثاء جيدة فاننا نذكر هنا صفات شعره . ان شعر ابن المقفع قليل جداً ولكنه جيد . ويظهر ان ابن المقفع لم يكن يحمل نفسه على قول الشعر ، ولم يكن يرضى كل ما يخطر منه بباله .

(٢) علم الكلام = عاصر ابن المقفع نشوء علم الكلام في الاسلام فلم يكن يدعاً ان يشتغل به . اما تعريف علم الكلام فيمكن ان يكون : « الدفاع عن العقائد الدينية بادلة عقلية واسلوب خطابي » .

ليس لدينا كتاب لابن المقفع في علم الكلام ، وليس في كتبه الموجودة شيء نسميه علم الكلام إلا على التوسع كقوله في باب الفحص عن امر دمنة : « وقدام العلماء بالعفو عن الجاني والصفح عن المذنب ، ولكنهم قد نبهوا عن اغتفار الجرم العظيم والذنب الكبير » ، ومن اشياء اخرى مبنوثة هنا وهناك . على ان الجاحظ اشار الى ابن المقفع فقال : « كان يتعاطى علم الكلام » ثم زاد على ذلك انه كان لا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً ، واستشهد على ما ذهب اليه « برسالة الصحابة » لابن المقفع

وقال : ان ابن المقفع « جيد الحكاية لدعوى القوم » ، يعني انه يفهم ما يقال في علم الكلام ولكنه « رديء المدخل في الطعن عليهم » يعني قليل المقدرة على الابتكار فيه وعلى رؤية الحق والباطل منه .

(٣) التوصل = كان ابن المقفع كاتباً من كتّاب الدواوين كعبد الحميد بن يحيى ، فله رسائل سياسية ادارية وله ايضاً رسائل اخوانية في التعزية او المؤاخاة او التهنئة وما شاكل ذلك . ومع ان هذه الرسائل لا تبلغ من حيث الثقافة الفنية في طولها وفي الصناعة فيها وفي خصائصها اللفظية مبلغ رسائل عبد الحميد ، فانها من الناحية الفكرية لا تقل عنها بل ربما فاقتها . ولا يدع فابن المقفع بني شهرته على الناحية العقلية في الانتاج .

ب) الانتاج الدخيل

نعني بالانتاج الدخيل عند ابن المقفع ما يرجع في فكرته الاساسية وفي القسم الاوفر من مادته - لا في نسقه واسلوبه - الى مصادر مشرقية (هندية او فارسية) في الاكثر او الى مصادر اغريقية (يونانية) في الاقل .

وهنا نأتي الى مشكلة من ادق المشاكل عند ابن المقفع : هل كان ابن المقفع ينقل من الفارسية الى العربية نقلاً حرفياً ، ام انه كان يكتفي باستقاء الفكرة من مظانها الفارسية ثم يلبسها ديباجة من اسلوبه العربي ويتصرف فيها بالحذف والزيادة وبالتبديل احياناً ؟

ان الاجابة على هذا السؤال اصبحت سهلة اليوم ، اذ ان الميزة التي تسود هذا النوع من انتاج ابن المقفع تدل بوضوح لا سبيل الى الجدل فيه ان ابن المقفع كان يستقي الفكرة الاساسية من مصدر فارسي (مثلاً) ثم يعالجها معالجة تتفق مع العقلية العربية وحاجاتها ، وفي اسلوب عربي خالص . اما الادلة على ذلك فسنتركها الى حين الكلام على تأليف ابن المقفع واحداً واحداً .

اولا : كتب الفلسفة = ذكر القطفي (١) ان عبدالله بن المقفع «اول من اعتنى في الملة الاسلامية بت ترجمة الكتب المنطقية لابي جعفر المنصور ... ترجم له كتب ارسطوطاليس الثلاثة : قاطيغوريوس وباري ارمينياس واثالوطيقا (٢) و ذكر انه ترجم ايساغوجي تأليف فرفورديوس الصوري (٣) .

ويظهر ان ابن المقفع نقل كتباً في الفلسفة الطبيعية (٤) .
اما اللغة التي نقل ابن المقفع منها هذه الكتب فاللغة الفهلوية لا اليونانية على ما يراه اكثر مؤرخي الفلسفة - بعد ان كانت هذه الكتب قد نقلت من قبل من اليونانية الى الفهلوية .

ثانياً : كتب السلوك = لو راجعنا جميع ما ينسب لابن المقفع - سوى كتب المنطق والطبيعة - لوجدنا انها ترجع الى موضوع واحد في اساسه : ترجع الى « السلوك والمخالقة » بين طبقات الناس المختلفة . ان ابن المقفع يريد في بعض هذه الكتب ان يثقف الملوك والامراء (كما في كيلة ودمنة وفي خدينامه) ، او ان يبسط القول في الادارة السياسية والعسكرية (كما في كتاب كيلة ودمنة ايضاً او كما في الادب الكبير والادب الصغير) .

ولا ريب في ان جميع هذه الكتب مشتق بعضها من بعض ، فالادب الكبير او الصغير ليس شيئاً اكثر من جمع الحكم المتفرقة في كتاب كيلة ودمنة بعد تجربتها من القصص والامثال ونسقها نسقاً جديداً وصوغها صوغاً مشابهاً . وفي كثير من الاحيان ترى ان قطعة ما بنصها التام موجودة في كيلة ودمنة وفي الادب الكبير . وكذلك رسالة الصحابة ليست شيئاً سوى اختيار ناحية خاصة من كيلة ودمنة (٥) ثم تطبيقها عملياً

(١) اخبار العلماء (لبيك) ص ٢٢٠

(٢) Analytica, Peri Hermeneias, Kategorias - اي كتاب (فصل)

المقولات والعبارة والقياس .

(٣) Eisagoge اي المدخل الى المنطق .

(٤) GAL, Suppl. I 253.

(٥) تشبه باب الاسد والثور وباب اليوم والغربان .

على ادارة مقاطعات المشرق (في خراسان) ، مع اعتبار الزمان والمكان - العرب والعجم ، والعراق والشام ، والاسلام والمنصور - بينما كليلة ودمنة يعالج الموضوع نفسه معالجة عامة تنطبق على كل مكان وزمان .

من اجل ذلك كله سنسمي هذه الكتب كلها كتاب : كيلة ودمنة والكتب المشتقة منه .

١ - كتاب كيلة ودمنة = اشهر كتب ابن المقفع واعظمها وادها على اسلوب صاحبنا ، واجلها في تاريخ الكتابة الادبية . وعلى هذا الكتاب تقوم شهرة ابن المقفع وبه يعرف مركزه وتقاس قيمته .

وفي الكتاب نفسه - كما نعلم من النسخ الموجودة بأيدي الناس - اربع مقدمات ثم خمسة عشر باباً تدور حول اسئلة يلقيها ملك من ملوك الهند يدعونه دبشليم على فيلسوف معاصر له يزعمون ان اسمه بيدبا . وقد اجاب بيدبا على هذه الاسئلة باجوبة مناسبة ثم ضرب على ما اجاب به امثلة واستخرج من كل شيء مغزى صرح به تصريحاً او تركه ملموحاً .

وفي هذا الكتاب يتعلم الامراء كيف يحكمون الرعايا وكيف يتقي بعضهم بعضاً وكيف يتعايش الناس فيما بينهم او يسировن على طاعة اولي الامر منهم . وعمدة الكتاب ان ثمة مثلاً علياً ثابتة من طاعة السلطان وحسن الصداقة ومن الصدق في القول والعمل ، ومن ادب الضيافة . واليك ما تمثله ابواب الكتاب .

أ - باب الاسد والثور يمثل السلطة العليا في الملك والحياة في البلاط وما يكون فيها من مكائد وسعابات .

ب - باب الفحص عن امر دمنة يمثل السلطة القضائية .

ج - باب الحمامة المطوقة يدور حول امكان الصداقة بين المتنافرين في الطبيعة كالجرذ والحمامة .

د - باب البوم والغربان يمثل السياسة الخارجية والحرب بين الملوك والامم ، واستطلاع اخبار العدو .

ه - باب القرد والغليم ويمثل لنا الرجل الغبي تمنحه له الفرصة فيضييعها ، والرجل الذي يقع في ورطة فيمتخلص منها بحسن عقله .

و - باب الناسك وابن عرس يمثل الرجل العجلان الذي لا يتروى قبل الاقدام على عمل ما .

ز - باب الجرذ والسيور ويتناول التمييز بين من هم اصدقاء على الحقيقة ومن هم اعداء ، وهو استدراك على باب الحمامة المطوقة) .

ح - باب الملك والطائر فتنة ويدور على ان « ذوي الاوتار (١) » لا ينبغي ان يثق بعضهم ببعض .

ط - باب الاسد وابن آوى والناسك ويمثل الرجوع الى الصداقة بعد العداوة .
ي - باب الببؤة والاسوار (الفارس الصياد) والشعير ، ويمثل المتعفف عن الظلم والمتعظ بغيره .

ك - باب ابلاذ وبيلاذ وايراخت وفيه ان المملك انما يثبت بالحلم والمشاورة .

ل - باب الناسك والضيف ويمثل الذي يترك ما في يده ليطلب غيره فلا يستطيعه فيضيع الامرين .

م - باب السائح والصائح ويمثل صنع المعروف في غير اهله .

ن - باب ابن الملك واصحابه ويمثل ان كل ما يجري على الناس انما هو بقضاء الله وقدره .

س - باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين ويمثل الرجل الذي يحاول ان ينفع الآخرين بآرائه ثم هو لا يعمل بها .

*

(١) الاوتار جمع وتر : الثار .

أمنقول كتاب كيلة ودمنة ام موضوع ؟

كثرت في ذلك جهود الباحثين واستقرت حول النظريات المختلفة الآتية :

(١) الكتاب منقول عن اللغة الفهلوية ، ان عبدالله بن المقفع اعلن في مقدمة الكتاب التي وضعها بنفسه ان الكتاب هندي الاصل ، نقله الفرس الى لغتهم ، ثم جاء هو فنقل هذا الكتاب من الفهلوية (الفارسية القديمة) الى العربية .

(٢) وقال آخرون ان الكتاب غير معروف في الآداب القديمة - بهذا الشكل - وما « دبشليم الملك » ولا « بيدبا الفيلسوف » ولا « فور ملك الهند » الا اعلام منسوبة الى زمن لم تكن فيه وامكنة لا تعرفها . ثم ان ما في الكتاب من احتقاره للشور ومن آيات قرآنية كريمة واحاديث نبوية شريفة وآراء لا شك في انها من حلب الفقه الاسلامي ، يدل على ان الكتاب نشأ في بيئة اسلامية عربية محض . على ان الرغبة التي كانت آتت في الكتب المنقولة لا الموضوعية ، واتهام عبدالله بن المقفع - فيما يقال - بكره ابي جعفر المنصور حملاه على ان ينحل كتاب كيلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف الهندي وان يقول انه نقله من اللسان الفهلوي الى اللسان العربي .

(٣) على ان تتبع بعض الباحثين اثبت ان « القصص » الواردة في كتاب كيلة ودمنة معروفة باعيانها او باشباهها عند اليونان وعند الفرس وعند الهنود . وعلى هذا يكون عبدالله بن المقفع قد استقى « القصص » من الادب الفارسي والهندي ثم ساقها سياقاً هو اوجده ، واستخلص منها العبر التي يريد بها هو و اضاف اليها وحذف منها . فيكون كتاب كيلة ودمنة اذن غير منقول عن اللغة الفارسية اذا اعتبرنا ان النقل انما هو وضع الآراء الاجنبية في لغة عربية مع التقيد بكل شيء . وكذلك لا يكون الكتاب مؤلفاً تأليفاً مستقلاً اذا اعتبرنا ان ذلك يقتضي الابتكار والاستقلال عن المجاري الاجنبية الخارجية . وهكذا يكون عبدالله بن المقفع - حسب هذه النظرية - قد استقى روح الكتاب من مصدر اجنبي ثم صاغه صياغة عربية تلائم البيئة العربية .

إننا اذا قبلنا النظرية الثالثة ، فما الادلة التي تقوم عليها ؟

لدينا ثلاثة انواع من الادلة :

(أ) الادلة التاريخية التي تقوم على انه ليس ثمة نسخة هندية او فارسية لكتاب يقابل كتاب كليلة ودمنة الموجود بين ايدي الناس والمعروف منذ العصر العباسي . بهذا الاسم . ثم ان النسخ الهندية والفارسية وسواها كلها منقولة عن النسخة العربية . ما خلا نسخة سريانية ليس معها دليل على صلة بنسخة فارسية او هندية بمائلة .

بقي هنا ان نجرح قول القفطي مثلاً وهو ان ابن المقفع « ترجم الكتاب الهندي المعروف بكتاب كليلة ودمنة (ص ٢٢٠) » بقولنا ان ذلك لا يعني اكثر مما ثبتنا . في النظرية الثالثة .

وأما اكتشاف قصص في الازب الهندي والفارسي وفي الادب الياباني (١) بمائلة لبعض ما في كتاب كليلة ودمنة فلا تعارض النظرية الثالثة بل نقوم دليلاً عليها .

(ب) الادلة الناقضة التي تقوم على ورود آراء في كتاب كليلة ودمنة تتعارض مع الثقافة التي كانت سائدة في فارس او في الهند . من ذلك مثلاً اقتباس آيات قرآنية واحاديث نبوية واحكام فقهية لا شك في انها اسلامية محض ولا يمكن ان تكون فارسية او هندية . خذ هذه الجمل مثلاً :

(١) ثم ان منزلة الانسان «قدورة عليه منذ الازل فلا سبيل له الا الرضى بها كيف كانت ... ما ارى الا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال ، فانه ليس للمصلي في صلاته ولا للمحتسب في صدقته ولا للورع في ورعه من الاجر ما للمجاهد عن نفسه اذا كانت مجاهدته على الحق ... (باب الاسد والثور) .

(٢) وقد امر العلماء بالعفو عن الجاني والصفح عن المذنب ولكنهم قد نهوا عن اغتفار الجرم العظيم والذنب الكبير ... لا تأخذه في الله لومة لائم ، وإلا فلا ملجأ

(١) راجع مقالا للدكتور عمر فروخ في الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٧ مع قصة يابانية مماثلة تمام المائة لباب القرد والغيلم . وقد اوردت هذه المقارنة للمرة الاولى .

لي في ذلك الا الله. وهو الذي يعلم سرائر العباد وما تُكِنُّ صدورهم... وان العلماء قد قالوا: من اقتrof خطيئة او اثماً ثم اسلم نفسه الى القتل من غير ضرورة تدعوه الى ذلك عفا الله عنه وانجاه في الآخرة من عذاب النار... ولأن تُعَذَّبَ في الدنيا بجرمك خير من ان تعذب في الآخرة بجيهم مع الاثم... وقد قيل انه من كتم شهادة ميت أُلْجِمَ بلجام من نار يوم القيامة... لان العلماء قالوا: ان الله تعالى جعل الدنيا سبيلاً الى الآخرة ومصدقاً لها لانها دار الرسل والانبياء الدالين على الخير الهادين الى الجنة الداعين الى معرفة الله تعالى... لعلهم ان الظن لا يغني من الحق شيئاً... قد علمت ان شهادة الواحد لا توجب حكماً (باب الفحص عن امر دمنة).

(٣) قالت له: ألم تعلم انه ليس من الخير والشر شيء الا وهو مقدر على من تصيبه المقادير (باب الحامة المطوقة).

(٤) ولا سيما ذوي البخل والحرص منهم، الذين ما يبيوتهم وخزائنيهم الا مدافن لآموال حبسوها فلا انتفعوا بها ولا تركوها للناس (باب البوم والغربان).

هذه آراء وتعايب اسلامية لا غبار عليها معروفة اصولها في القرآن الكريم والحديث الشريف والفقهاء، ولا يمكن ان تكون هندية او فارسية. اصف الى ذلك معاملة الثور معاملة لا تتفق مع احترام اهل الهند له وتقديسهم اياه.

(ج) ادلة التأليف. ان كتاب كليلة ودمنة ليس «وحدة تأليفية» فلم يؤلفه رجل واحد ولم يؤلف في زمن واحد، نعرف ذلك من دراسة المقدمات الاربع خاصة ومن معارضة بعض محتوياتها ببعض (١):

استخرج الدارسون ان كتاب كليلة ودمنة — على افتراض انه منقول — كان يتألف في الاصل الهندي من مقدمة وخمسة ابواب. ولكن في النسخة التي بايدي الناس اربع مقدمات وخمسة عشر باباً، فلا بد اذن من ان يكون هنالك مقدمات

(١) راجع مقالا مفصلاً للمؤلف في جريدة صوت الاحرار (بيروت) في ٢٣ كانون الاول ١٩٣٣ وفي ١٣ كانون الثاني ١٩٣٤.

وابواب زادها ابن المقفع او انه رآها زائدة في النسخة الفهلوية . فغرضنا الآن ان نعارض بعض مضمون هذه المقدمات ببعض وان نعارض باب عرض الكتاب الذي هو لعبد الله ابن المقفع ، لا شك في ذلك ، بسائر المقدمات وابواب الكتاب كلها من حيث المادة والاسلوب .

(١) باب مقدمة الكتاب = « قدمها بهنود بن سحران ويُعرف بعلي بن الشاه الفارسي ، ذكر فيها السبب الذي من اجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي .. لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة ... وذكر السبب الذي من اجله انفذ كسرى انوشروان برزويه ... الى بلاد الهند لاجل كتاب كليلة ودمنة ... وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً ... وقد ذكر السبب الذي من اجله وضع برزجهر باباً مفرداً سماه باب برزويه الطيب » .

فيتضح لنا اذن ان « باب برزويه » وضع بعد قرنين من حياة بيدبا المزعوم . ثم ان باب « مقدمة الكتاب » هذا الذي وضعه بهنود او علي بن الشاه الفارسي يجب ان يكون متأخراً بضعة قرون آخر ، وان صاحبه مسلم لا يعيش في فارس ، وهذا يتعارض مع المبدأ المقرر من ان كتاب كليلة ودمنة هذا مترجم .

ثم يذكر لنا بهنود هذا كيف وضع بيدبا - على ما بين بهنود وبيدبا من بعد العهد - كتاب كليلة ودمنة فيقول :

« ولم يزل يفكر في ما يعمل في باب الكتاب حتي وضعه على الانفراد بنفسه مع رجل من تلاميذه كان يثق به . فخلا به منفرداً بعد ان اعد من الورق الذي كانت تكتب فيه الهند شيئاً كثيراً ، ومن القوت ما يقوم به وتلميذه تلك المدة ، وجلسا في مقصورة وردا عليها الباب . ولم يزل هو بعلي وتلميذه يكتب ويرجع هو فيه حتى استقر الكتاب علي غاية الاتقان والاحكام ، ورتب فيه خمسة عشر باباً ... فلما تم الحول انفذ اليه الملك ان قد جاء الوعد ، فما صنعت ؟ فانفذ اليه بيدبا آني علي ما وعدت فليأمرني الملك بحمله بعد ان يجمع اهل المملكة لتكون قراءتي هذا الكتاب بحضرتهم » .

ومن هنا يتضح ان بيدبا وتلميذه وضعوا الكتاب في عام واحد كما في اثنا عشر منقطعين

عن كل ائمة ، فكيف نفسر اذن مطالع الابواب : « قال دبشليم : قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثل ... » ؟ والمثل لم ير الكتاب الا مرة واحدة !
ويذكر يهود ان ابواب الكتاب خمسة عشر ، فعلى هذا يجب ان تكون المقدمة متأخرة الى زمن اصبح فيه الكتاب على ما هو بايدي الناس الآن .

(٢) باب بعثة برزويه = يصف هذا الباب كيف بعث كسرى انوشروان برزويه الطبيب الى بلاد الهند ليطلب كتاب كليلة ودمنة .

هنا يبدو لنا امورٌ منها ان مضمون هذا الباب مذکور في باب مقدمة الكتاب .
أيكون هذا الباب قد وضع بعد مقدمة يهود ، ام يكون يهود قد اختصر باب بعثة برزويه ؟ ثم ان هذا الباب مملوء بالآراء الاسلامية ، فان هنالك على لسان برزويه الفارسي المجوسي هذه الاقوال :

« اما بعد فان الله تبارك وتعالى خلق خلقه برحمته ومن على عباده بفضله كرمه ورزقهم من العقل ما يقدمون به على اصلاح معاشهم في الدنيا ويدركون استنقاذ ارواحهم من العذاب في الآخرة ... الله تعالى ... الخالق المبدع الواحد الاحد . »

(٣) باب عرض الكتاب = لباب عرض الكتاب ، وهو من وضع ابن المقفع ، لا شك في ذلك ، اهمية مزدوجة : وجه منها يتعلق بأسلوب ابن المقفع وستتناول الكلام عليه عند بسط خصائصه اللفظية ، ثم وجه منها يتعلق بتاريخ كليلة ودمنة .
اما الاهمية التاريخية فهي ان ابن المقفع يعرض لبعثة برزويه بالتفصيل بعد ان كان يهود بن سحران قد اشار اليها في آخر مقدمته . ثم ان هنالك في باب عرض الكتاب ثمانية امثال جري فيها ابن المقفع على غرار الامثال الواردة في سائر فصول كليلة ودمنة في مادتها ونسقتها واسلوبها كقوله :

« فقال له رفيقه : ما مثلك الا مثل اللص والتاجر » ، فقال له : « وكيف كان ذلك ؟ » قال : « زعموا ان تاجراً كان في منزله خابيتان ... »

اضف الى ذلك كله ان هذا الفصل ولغته بمفرداتها وتراكيبها لا تخرج عما نألفه في فصول الكتاب الاساسية ، كباب الاسد والثور مثلاً .

(٤) باب برزويه = ينسب هذا الباب - الذي يبحث في حياة برزويه ورحلته الى الهند في طلب كتاب كليله ودمنة حتى زمن ترجمته ثم قراءته بين يدي كسرى - الى الوزير بزرجمهر بن البختگان . ولكن هذا الباب يجري على صيغة المتكلم : « ان ابني كان من المقاتلة وكانت امي من عظماء بيوت الزمازمة ... ولما كانت نفسي تتوق الى ذلك ... فلما تحررت من تصديق ما لا يكون ولم آمن ان صدقته ان يوقعني في هلكة عدت الى البحث عن الاديان والتماس العدل منها ... » فهذا يدل بلا شك على ان برزويه نفسه هو الذي كتب هذا الباب ، وما نسبته الى بزرجمهر الا لتشريف برزويه .

على ان في هذا الباب ما يمنع ان يكون مكتوباً بيد بزرجمهر او منقولاً عن لسان برزويه بما يخالف الدين الفارسي والفلسفة الفارسية كقوله : « واضمرت في نفسي ألا ابغى على احد ، ولا اكذب بالبعث ولا القيامة ، ولا الثواب ولا العقاب » وان لا إله إلا الله الفرد الصمد ، يكافى على الخير باخير وعلى الشر بالشر .

أين مقدمة بيدبا

زعموا ان بيدبا وضع مقدمة ، ولكن اين مقدمته ؟ ان كل مقدمة من المقدمات الاربع التي عاجلناها يستحيل ان تكون لبيدبا بما بيننا ، ويصعب ان تنسب الى الرجل الذي نسبت اليه - ما عدا باب عرض الكتاب لعبدالله بن المقفع - لاسباب بيننا وشرحناها . ثم ان باب مقدمة الكتاب لبهنود بن سحوان او علي بن الشاه الفارسي يصعب ان تكون لعلي بن الشاه الظاهري كما اراد بعض المستشرقين ، وجاراهم على ذلك احمد امين في ضحى الاسلام (١) مستندين الى ورود اسم علي بن الشاه الظاهري « في كتاب الفهرست (٢) .

(١) ١ : ٢١٧

(٢) المطبعة الرحمانية ٢١٨

فيلخص من كل ما تقدم ان اسلوب كتاب كليلة ودمنة ، على ما هو اليوم جابدي الناس ، واحد في لغته ونسقه وخصائصه وميزاته - الا ان يكون هنالك بعض الآراء والجل التي انسابت الى الكتاب في اثناء الاعصر المتطاولة ، ولا عبوة بذلك . ثم ان الكتاب في مجموعه يستحيل ان يكون ترجمة بالمعنى المتعارف لما فيه من آراء تحالف العقلية الهندية والفارسية ، فهو اذن موضوع في لغته واسلوبه ونسقه على اساس فكرة عامة وقصص كان بعضها شائعاً في جميع انحاء المشرق من فارس الى الهند الى اليابان .

٢ - كتاب الادب الصغير = مجموع حكم يسوقها ابن المقفع مجردة من القصص والامثال ، على خلاف اسلوب كليلة ودمنة ولكن ليس على خلاف غايته . وبعض هذه الاقوال مذكور في كتاب الادب الصغير وفي كليلة ودمنة معاً كالقطعة المشهورة : « ... ما الاخوان ولا الاعوان ولا الاصدقاء الا بالمال ... » اما كلامه فموجه الى العامة اكثر منه الى الحكام والولاة .

والكتاب مجموع من كلام الناس وحكم الشعوب - وربما من كلام ابن المقفع ايضاً - وسمي « الصغير » تمييزاً لحجمه لا تعييناً لمادته واهميته .

٣ - الادب الكبير = مجموع حكم اكبر من « الادب الصغير » وفيه كلام مبسوط على الصلة بين الحكام والرعية اكثر مما في الادب الصغير . ثم فيه امور تتعلق بالتحالفة بين الناس انفسهم .

ويظهر ان ابن المقفع احب ان ينظم آراءه هنا اكثر مما فعل في الادب الصغير فاعطانا « باب السلطان » و « باب الصديق » . لقد حاول فعلاً ان يضم بعض الآراء الى ما يشاكلها .

٤ - الدرة البتيمة = يروي ان لابن المقفع كتابين بهذا الاسم ، رَوَوْا ان « في احدهما حكماً منقولة توجد عند حكماء كل امة مذكورة بالفضل » . ولعل هذا ما يطبع احياناً باسم الادب الكبير .

٥ - الدرة البتيمة الثانية = وهي كلام « في شيء من الديانات » ، والكتاب مفقود .

٦ - رسالة الصحابة رسالة كتبها ابن المقفع كما يظهر بطلب من الخليفة المنصور، وقد ضمنها خططاً واساليب وآراء تعرف المنصور بالامور الادارية والحربية، وخصوصاً فيما يتعلق باهل خراسان وأهل العراق والشام. وقد بسط ابن المقفع القول في صحابة المنصور - يعني خاصته وبطانته من بني العباس على الاخص - ولذلك تعرف برسالة الصحابة.

٧ - خدائنامه = يُرجَّح ان هذا الكتاب - كما يبدو من اسمه : خدائنامه، او كتاب الملوك - انه تاريخ ملوك الفرس الاولين . والكتاب مفقود .

٨ - آيين نامه = كتاب يظهر من اسمه ومن بعض الشواهد المتفرقة في بعض الكتب انه كان يبحث في « التمدن الفارسي » . فان كلمة آيين معناها : العادات السائدة او الاحوال ، او الحُطّة او الرسم - يعني ما يرسم للناس حتى يسيرة عليه .

*

هذا وان هنالك كتباً اخرى تنسب لابن المقفع ككتاب التاج مثلاً ، إلا ان بعضها مفقود وبعضها معتل النسبة ، ولا حاجة بنا هذا الى التبسط في الكلام عليها .

خصائص ابن المقفع الادبية

اذا كانت كتب ابن المقفع لا تدل على ميزاته الفكرية ضرورة ، على اعتبار انها في الاصل آراء قوم آخرين ، فان هذه الكتب تدل بلا شك على خصائصه الادبية على اعتبار ان ما فيها من الآراء مسوق في لغته وجارٍ على اسلوبه . ولكن يجب ان نغيز في كتابة ابن المقفع بين اسلوبين : اسلوب الترسيل الذي لم يختلف فيه كثيراً عما عرفته رسائل استاذه وصديقه عبد الحميد الكاتب ، ثم الاسلوب المسيطر على كتاب كلیلة ودمنة وعلى جميع الكتب المشتقة من كلیلة ودمنة .

اما اسلوبه في رسائله فليس اسلوباً متميزاً بنفسه ، وانما هو اسلوب كلیلة ودمنة - الذي سنتناول الكلام عليه بعد قليل - مضافاً اليه شيء من الصناعة التي صبغت

عصر ابن المقفع : التمجيد فيها قليل ، والصناعة قليلة فيها ، اذ يتكلم ابن المقفع كثيراً على الناحية العقلية من كل موضوع - شأنه في سائر آثاره - . وليس هنالك اثر شخصي بارز في هذه الرسائل .

*

واما اسلوبه في كتاب كيلة ودمنة والكتب المشتقة منه فهو متمثل في ما يلي :

الخصائص المعنوية

١ - البحث والتحليل = يتناول ابن المقفع القضايا المجردة من عقلية او نفسانية او اجتماعية نحو الصداقة والعداوة او الكذب او السعي في طلب الرزق او مخالفة الملوك ثم يحاول بسط البحث فيها والتحليل لها من طريق الاقتناع المنطقي والخطابي . وهذا عام في كتبه كلها .

٢ - القصص والامثال = ويعتقد ابن المقفع ان البحث والتحليل خاص بالحكماء ولذلك تراه في كيلة ودمنة خاصة - على افتراض ان الكتاب من وضعه - يستعين بالقصص على السنن الحيوان ، وحياناً على السنن البشر ، وبالامثال حتى يقرب تلك الامور العقلية من افهام العامة .

٣ - الاستطراد المحكم = ولابن المقفع (في كيلة ودمنة) طريقة خاصة في سرد القصص وضرب الامثال ، فهو يأتي بها متداخلة حتى يستحيل عليك - في كثير من الاحيان - ان تفهم القصة الاولى قبل ان تصل الى نهاية القصة الاخيرة . إنه يبدأ قصة فاذا سار فيها شيئاً يسيراً انتقل الى غيرها . ثم ينتقل الى هذا الشكل الى الثالثة . ثم يتم الثالثة ثم الثانية ثم الاولى . وبهذه الطريقة يضطر القارئ الى قراءة القصص والتحليل ايضاً .

٤ - المغزى المموج = والغاية من كيلة ودمنة خاصة تثقيف الناس من طريق العبرة في الآخرين : انه يكشف عن عيوب الناس ونقائصهم واخطائهم ثم ينظر منك

ان تتعظ بذلك. وقد يستنتج لك العبرة من القصة او القصص المتعاقبة ثم يحضك على
الاخذ بما حسن منها والتروك لما ساء. واحياناً يهمل هذا الحض ويكتفي بان
تعرف انت لنفسك ما يحسن وما يسوء.

٥ - فرض الحكم = يقول ابن المقفع ما يقوله (في جميع كتبه) وهو واثق
بنفسه وبصحة الاحكام التي يصدرها مع إيقانه بعجز البشر عموماً عن تنفيذها. فهو
يقول في آخر كتاب الادب الكبير بعد ان يعدد صفات صديقه الذي يُعجبُ به :
« فعليك بهذه الاخلاق ان اطقت - ولن تطيق - ولكن اخذ القليل خير من
ترك الجميع ».

تأمل قوله : « عليك بهذه الاخلاق » ، فهذا فرض . ثم اعتبر قوله : « ان
اطقت - ولن تطيق - » فهذا تعجيز او هو قلة ثقة بالبشر . ثم انظر في قوله :
« ولكن اخذ القليل خير من ترك الجميع » ، فهذا اظهار للرحمة ، اذ يعتقد ان الناس
على عجزهم يجدر بهم ان يتصفوا ببعض اخلاق صديقه .

٦ - حسن التبويب = ومتاز جميع كتب ابن المقفع بحسن التبويب : انه اذا
تناول مجيئاً وفناه حقه في مكانه لا ينتقل عنه قبل ان يعتقد انه استوفى تحليله .
ثم انه ينتقل - في اثناء البحث الواحد - على اسلوب منطقي فيذكر اولاً ما يجب
ذكره اولاً من غير تشويش .

فمن توفيته الموضوع حقه في مكان واحد وانتقاله منطقياً في البحث الواحد
قوله في الادب الكبير : « انك ان تلتبس رضى جميع الناس تلتبس ما لا يدرك .
وكيف يتفق لك رأي المختلفين ، وما حاجتك الى رضى من رضاء الجور والي
موافقة من موافقة الضلالة والجهالة ؟ فعليك بالتأس رضى الاخيار منهم وذوي
العقل ، فانك متى تصيب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه » .

٧ - الوضوح والغموض = لا شك في ان الفكرة العامة من جميع ما كتب ابن
المقفع بيّنة واضحة . وانك لا تقرأ له قصة او حكمة او مثلاً الا ادرت حالاً ما
يقصد . على ان لابن المقفع - كما لسائر الكتاب - جملاً كهذه التي نقرأها في كتاب

الادب الكبير : « ليس احد أسوأ حالا من اهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم فانه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله او يتخبطه المس من يعاقب في غضبه غير من اغضبه ويحبو عند رضاه غير من ارضاه لكان جائزاً في صفة » .

في هذه الجملة غموض منشأه (١) طول الجملة ، (٢) تداخلها ، (٣) محاولة حصر معنى متشعب في كلمات معدودة ، (٤) ان المعنى المتضمن هنا مجرد بعيد عن مستوى التفكير عند بعض الناس ، (٥) قد تكون الفكرة في اللغة الاصلية من جوامع الكلم التي يعبر اللفظ القليل فيها عن فكرة متشعبة ، فلما اراد ابن المقفع نقلها الى العربية تنبأ له المعنى المتشعب ولكن لم يتنبأ له اللفظ العربي الجامع .

على ان الانصاف في شأن الرجل ان نقول :

أ - ان هذا الغموض في جمل قليلة من جمل ابن المقفع لا يقدر في قدرته فهو موجود في آثار كل كاتب .

ب - ان ابن المقفع بدأ نهضة كتابية وشق طريقاً جديدة في البحث ولم تكن قواعد العربية في النحو والبلاغة والمنطق بعد قد اكتملت ، ولا كانت القواميس قد وضعت بعد وضعاً يسر استعمالها . ولقد عرفنا ان كل اديب يبدأ نهضة - في النثر او الشعر - يشيع في آثاره غموض كثير ، خذ على ذلك مثلاً امرأ القيس واباتام وابن الفارض في العربية ثم هوميروس في اليونانية وشكسبير في الانكليزية وكورناي في الافرنسية ... فان المقفع اذنت معذور على بعض الغموض في كتاباته حتى لو كان هذا الغموض اكثر واشد مما هو عليه فعلاً .

✓ الخصائص اللفظية

اول ما يلفت نظرنا من خصائص ابن المقفع اللفظية ان لغته سهلة واسلوبه بسيط ، اذ انه (فيما اعتقد) عمد الى لغة التخاطب في البيئة الراقية - في حلقات الادب ومجالس الامراء - فكتب فيها ما اراد . فلغة ابن المقفع (في كتاب كيلة ودمنة خاصة) شديدة الشبه بلغة التخاطب البسيطة ، خذ على ذلك قوله : « يقال انه كان رجل تاجر ، وكان

له شريك ، فاستأجرا حانوتاً وجعلوا متاعهما فيه . وكان احدهما قريب المنزل من الحانوت فاضمر في نفسه ان يسرق عدلاً من اعدال رفيقه ... » .
فانت ترى انك اذا اهملت الاعراب في هذه الجملة لم تخرج فيها عن الكلام العامي المألوف . ومن المسلم به ان لغتنا العامية الحاضرة اشد ايفالاً في الفساد من اللغة التي كانت محكية في صدر الدولة العباسية . وهكذا يبدو لنا ان ابن المقفع كان شديد التأثر باللغة التي كانت محكية في زمنة قليل التأثر بالاساليب الديوانية التي عرفت في ايامه .

١ - الفاظه = ابن المقفع يتخير الفاظه ويقصد ان تكون فصيحة لا غريب فيها الا بضع كلمات جزلة يحسن ابن المقفع استعمالها ونسيته نحن اليوم ، نحو : رفيق (لطيف ، خفيف) وُسْبَه (التبس واختلط) و مربية (شك) و سقطه (غلطة) والسباخ (الارض المهملة) وخافر (ناقض للعهد) الا ما كان مثلاً من مثل السرجين (الزبل) وهو لفظ فارسي معرب ، او الجواس العادل (يقصد ابن المقفع به رجلاً يجلس مع القاضي عند الحكم) او بهت (افتري) . ثم ان هنالك كلمات فنية من الطب مثلاً نحو : اخلاط ، وناسور ، وافدع ، الا ان هذه قليلة جداً .

٢ - تراكمه = اول ما يبدو لنا في ما كتب ابن المقفع ان جملة طويلة متعاقبة ، اعني ان بعضها متداخل في بعض حتى انك لا تستطيع ان تفصلها جملاً قصيرة . وهو يستعين على ذلك بكثرة استعماله الروابط كاسماء الموصول نحو « هذا كتاب كليله ودمنة . هو (بما) وضعت علماء الهند من الامثال والاحاديث (التي) ألهموا ان يدخلوا فيها ابلغ (ما) وجدوا من القول في النحو (الذي) ارادوا ... »
واحياناً يكثر من احرف العطف كقوله « ... اجتاز ببعض المفاروز فظهر له موضع آثار كنز ، فجعل يحفر ويطلب فوقع على شيء كثير من عين وورق (ذهب وفضة) فقال في نفسه ... »

وابن المقفع لبق في التصرف باحرف الجر ينسق بها جملة كقوله : « ثم ان العاقل اذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية عمله (فيه) ينبغي (له) ان يعمل (بما) علم (منه) لينتفع (به) ويجعله مثلاً لا يحيد (عنه) » .

ثم ان هنالك تراكيب «لبقة» تحمل طابع ابن المقفع فتُعرف به ويُعرف بها، من ذلك «... ومن فعل ذلك كاث خليقاً ان يصيبه ما اصاب... فان خلالاً ينبغي لصاحب الدنيا ان يقتنيها ويقتبسها... وقد يقال في امرين انها يجملان بكل احد... ويقال في اشياء يجب على صاحب الدنيا اصلاحها... وقد قيل في امور من كن فيه لم يستقم له عمل...» .

وهناك ايضاً شيء من التقديم والتأخير لا تقره قواعد الصرف والنحو كقوله : «انه كان... رجلٌ شيخ له ثلاثة بنين» مكان «انه كان لرجل شيخ ثلاثة بنين» ، او قوله : «فلامهم ابوهم ووعظهم على سوء فعلهم» مكان «فلامهم ابوهم على سوء فعلهم ووعظهم» . الا ان هذا واشباهه لا يضر لغة ابن المقفع، فهي مفهومة لا ايهام فيها ولا غموض ، اذا اردت ان تفهمها تفهماً عاماً . اما اذا احببت ان تَرَجِّع البَصَرَ فيها فانك ترى فيها مطاعن ومغامز غير قليلة .

ويُدْهَشُك ألا تجد على تراكيب ابن المقفع شيئاً من العجمة ، مع ان بعض الدارسين يقول انها منقولة (مترجمة) ، وكلهم يقر بانها مستقاة من مصادر اجنبية . والناظر في كتب ابن المقفع يرى انها بعيدة - في روحها وتراكيبها - عن البادية وان كثيراً منها حضري قريب من العامة (١) .

من اجل ذلك كله تستطيع ان تقول ان لغة ابن المقفع تضعف احياناً وتترك ، وان كانت على العموم اقرب شيء الى ما يسمى «السهل الممتنع» .

٣ - الايجاز والاسهاب = تُعرف كتابات ابن المقفع بالايجاز ، فهو يعبر عن المعنى الكثير بالالفاظ القليلة ويعالج الفكرة المتشعبة في الجملة القصيرة ، ولا غرو فاكثروا يكتبه جمل من الحكمة او فنون من الامثال . ولكنه احياناً يشعر ان معنى من معانيه قد يستغرق على فهم الرجل العادي فتراه حينئذ فقط يردد ذلك المعنى في تراكيب متشابهة كقوله : «وقد يقال ان العلم لا يتم الا بالعمل ، وان العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة» .

«وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وان لم يستعمل ما يعلم فليس به عالماً . ولو ان رجلاً كان عالماً بطريق يخوف ثم سلكه على علم به سمي جاهلاً » . اصف الى ذلك كله انه احياناً يضرب مثلاً او مثلين او يقص حكاية او اكثر زيادة في تبيان الفكرة الواحدة .

وهكذا نستطيع ان نوفق بين الایجاز والاسهاب عند ابن المقفع .

٤ - اوجه البلاغة = حينما عرّف ابن المقفع البلاغة بانها تلك «التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها» كان يقصد بذلك - من غير شك - الناحية العقلية المعنوية لا اللفظية . والمشهور عن ابن المقفع انه كان يترك قريحته على سجيته وقاما تعهد التصنيع . على انه في رسائله خاصة كان يلجأ الى التحميد والتقسيم والموازنة والسجع والى الجناس والطباق ولكن من غير اغراق ، مثل قوله : «... ورب غلام ساء اهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرّحت اهلها بعد مساءتهم » .

اما في الادبين الكبير والصغير وفي كلیلة ودمنة فالسجع مثلاً اندر ، الا في بعض مواقف التهمك ، كقوله في باب الفحص عن امر دمنة عند مخاطبة الخنزير : « وایاك اعني ايها الاعرج المكسور الذي في وركه الناسور » ، او ما يأتي من سائر وجوه البلاغة سليقة وعفواً .

٥ = اسلوب ابن المقفع = يتضح من كل ما تقدم ان ابن المقفع يميل الى استعمال الالفاظ القصيدة والى اختيار ما عذب منها . ثم يسوق ذلك في تراكيب تميل الى الطول مستعيناً على اطالته باستعمال الروابط المختلفة من احرف الجر واسماء الموصول واحرف العطف . وهو لبق جداً في استعمال هذه الروابط مع ان لغته تضعف احياناً من اجل ذلك (وخصوصاً في كتاب كلیلة ودمنة) . اما الصناعة فابن المقفع قليل الميل اليها الا ان تجده في رسائله خاصة شيئاً من الجناس والطباق ومراعاة النظير وشيئاً من التقسيم والموازنة وما اليها .

واسلوبه فوق ذلك في كلیلة ودمنة خاصة قصص تحليلي ، اما في رسائله فتحليلي خطابي جدي . واما في الادبين الصغير والكبير فهو اميل الى الاخذ «بجوامع الكلم» ،

اعني بالكلمات القليلة التي تضم المعنى الكثير على نط الامثال والحكم ، وربما مال هنا ايضاً الى التحليل وحاول الافناع . ثم ان شخصية ابن المقفع بارزة في كل ما يكتب .

أثر ابن المقفع

واثر ابن المقفع في تاريخ العرب الثقافي عظيم جداً يبدو في نواح مختلفة :

١ - ان كتب ابن المقفع اول محاولة صحيحة مقصودة لمزج الثقافة العربية بثقافة اجنبية (فارسية في الاكثر وهندية في الاقل) .

٢ - عرف العرب عن طريق ابن المقفع ألواناً كثيرة من التمدن المشرقي فاكثبوا منها كثيراً في السياسة والادارة والاجتماع .

٣ - لقد اثرت كتابات ابن المقفع في الاتجاه العقلي ، وبكفي ان نذكر اربعة تأثروا بابن المقفع ايماً تأثر : اولهم الجاحظ شيخ كتاب العربية في تشعب ما تناوله من الموضوعات ، فلقد تأثر الجاحظ بالتحليل والجدل اللذين اختطهما ابن المقفع ، وتأثر ايضاً بأسلوبه .

ثم نعد المتنبي سيد الشعراء بلا منازع والذي لا يكاد اديب يستغني عن الاستشهاد ببعض ابياته . ان كثيراً من الحكم الواردة في ديوان المتنبي تجدها مستقرة في انتاج ابن المقفع ، وخصوصاً في كلية ودمنة .

ثم هنالك الفيلسوفان العربيان ، الفارابي وابن سينا ، فانها ترسم خطوط ابن المقفع في فلسفتها المدنية . وبكفي ان تقرأ رسالة أبي نصر الفارابي في السياسة وكتاب السياسة لابن سينا حتى تدرك الاثر البالغ الذي تركه ابن المقفع في الفيلسوفين وعلى الاخص فيما يتعلق بالولاة وبالاصدقاء ، فقد اعترفوا من كتاب كلية ودمنة ومن كتابي الادب الكبير والادب الصغير اعترافاً . ولكنها نظماً ما اخذاه واجرياه على المنطق .

٤ - وابن المقفع اول من الف في العربية كتاباً في موضوع متعاقب الفصول :
انه اول من اوجد « وحدة التصنيف » ، اذ ليس لدينا كتاب يتقدم عصر ابن المقفع
نحاً فيه مؤلفه منحى الوحدة في التأليف . ولقد بقي العرب بعد ابن المقفع زمناً
طويلاً قبل ان يتعودوا « وحدة التصنيف » هذه .

٥ - على ان اهم من هذا كله ان ابن المقفع اوجد « اسلوباً ادبياً » يعبر نفسه
جميع الموضوعات ، وعلى الاخص تلك التي تحتاج الى بسط القول في الوصف والقصاص
والتحليل والبحث والموازنة بين الآراء ، والمضي في الجدل والافناع .

مختارات

من كتاب كليله ودمنة

باب عرض الكتاب

(او باب غرض الكتاب)

هذا الباب هو في الحقيقة « مقدمة الكتاب » الصحيحة ، تدور على الدافع الحقيقي لاجراء كتاب كليله ودمنة - تأليفاً كان ذلك أم نقلاً - :

هذا كتاب كليله ودمنة . هو بما وضعه علماء الهند من الأمثال والاحاديث التي ألهموا ان يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي ارادوا . ولم تزل العلماء ، من كل أمة ولسان ، يلتمسون ان يعقل عنهم ويحتالون لذلك بصنوف الخيل وابتغون إخراج ما عندهم من العلل في اظهار ما لديهم من العلوم والحكم ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على افواه البهائم والطيور ، فاجتمع لهم بذلك خلال . اما هم فوجدوا منصرفاً في القول وشعاباً يأخذون منها ووجوهاً يسلكون فيها .

واما الكتاب فجمع حكمةً وهواً . فاختاره الحكماء لحكمته والاعتراف للهواه . والمتعلم من الاحداث ناشط في حفظ ما صار اليه من امر يُربط في صدره ولا يدري ما هو ، بل عرّف أنه قد ظهر من ذلك بمكتوب مرقوم . وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد ابويه قد كنزا له كنوزاً وعقداً له عقداً استغنى بها عن الكدح فيما يعمل من امر معيشته فاغناه ما اشرف عليه من الحكمة عن الحاجة الى غيرها من وجوه الادب .

فالول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب ان يعرف الوجوه التي وضعت له والرموز التي رُمزت فيه ، والى اي غاية جرى مؤلفه فيه عند ما نسيه الى البهائم

واضافه الى غير مُفصح ، وغير ذلك من الاوضاع التي جعلها امثالا . فان قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يُجتنى منها ولا أي نتيجة تحصل له من مقدّمات ما تضمنه هذا الكتاب . وإنه ان كانت غايته منه استتمام قراءته والبلوغ الى آخره دون تفهم ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع اليه نفعه

وكذلك من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً لم ينتفع بما يبدو له من خطه ونقشه . كما لو ان رجلاً قدّم له جوز صحيح لم ينتفع به الا أن يكسره ويستخرج ما فيه . وكان ايضاً كالرجل الذي طلب علم الفصيح من كلام الناس ، فاتى صديقاً له من العلماء له علم بالفصاحة فاعلمه حاجته الى علم الفصيح ، فرسم له صديقه في صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه . فانصرف بها الى منزله ، فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها ولا يعلم تأويل ما فيها حتى استظهرها كلها . فاعتقد انه قد احاط بعلم ما فيها . ثم إنه جلس ذات يوم في محفل من اهل العلم والادب فأخذ في محاورتهم ، فاجرت له كلمة اخطأ فيها . فقال له بعض الجماعة : إنك قد اخطأت ، والوجه غير ما تكلمت به . فقال كيف اخطىء وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي ؟ فكانت مقالته هذه أوجب للحجة عليه ، وزاده ذلك قرباً من الجهل وبعداً من الادب

وقد يقال ان العلم لا يتم الا بالعمل وان العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة . وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وان لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالماً . ولو ان رجلاً كان عالماً بطريق خوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلاً . واقل الناس عذراً في اجتناب محمود الافعال وارتكاب مذمومها من ابصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض . كما انه لو ان رجلين احدهما بصير والآخر اعمى ساقها الاجل الى حفرة فوقها فيها كانا ، اذا صارا في قعرها بمنزلة واحدة . غير ان البصير اقل عذراً عند الناس من الضير ، اذ كانت له عينان يبصر بها وذاك بما صار اليه جاهل غير عارف .

وقد ينبغي للنظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزويقه ، بل

يُشْرِفُ عَلَى مَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الْأَمْثَالِ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِهِ ، وَيَقِفُ عِنْدَ كُلِّ مِثْلٍ وَكَلِمَةٍ وَيُعْمَلُ فِيهَا رَوِيَّتُهُ ، وَيَكُونُ مِثْلُ ثَلَاثِ الْأَخَوَاتِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفَ لَهُمْ أَبُوهُمُ الْمَالُ الْكَثِيرَ فَنَازَعُوهُ بَيْنَهُمْ . فَأَمَّا الْإِثْنَانِ الْكَبِيرَانِ فَانْهَارَا فِي إِتْلَافِهِ وَإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ . وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَانْهَارَ عِنْدَمَا نَظَرَ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَخُوهُ مِنْ اسْرَافِهَا وَتَخَلُّسِهَا مِنَ الْمَالِ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَشَاوِرُهَا وَقَالَ : يَا نَفْسُ ، إِنَّمَا الْمَالُ يَطْلُبُهُ صَاحِبُهُ وَيَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ لِبَقَاءِ حَالِهِ وَصَلَاحِ مَعَاشِهِ وَدُنْيَاهِ وَشَرَفِ مَنَزَلَتِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَاسْتِغْنَائِهِ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَصَرْفِهِ فِي وَجْهِهِ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْوَلَدِ وَالْأَفْضَالِ عَلَى الْإِخْوَانِ . فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلَا يَنْفَقُهُ فِي حَقْوَقِهِ كَانَ كَالَّذِي يَمُوتُ فَقِيرًا وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا . وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِسْكَانًا وَالْقِيَامَ عَلَيْهِ لَمْ يَعْدَمْ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا ، مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ وَحَمْدٌ يُضَافُ إِلَيْهِ . وَمَتَى قَصِدَ انْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي تُحْدِثُ لَهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَتَلَفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ . وَلَكِنْ الرَّأْيُ أَنْ أَمْسِكَ هَذَا الْمَالُ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللَّهُ بِهِ وَيَغْنِي أَخَوَتِي عَلَى يَدَيَّ فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي وَمَا أَيْبَاهَا . وَإِنْ أَوْلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى صِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعْدَتْ ، فَكَيْفَ بِأَخَوَتِي . فَأَنْفَذَ فَاحْضَرَهُمَا وَشَاطَرَهُمَا مَالَهُ .

وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى قَارِئِ هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهِ ، وَلَا يَظُنَّ أَنَّهُ نَتِيجَةٌ إِنَّمَا هِيَ الْإِنْخِبَارُ عَنْ حِمْلَةٍ بِهِمَّتَيْنِ أَوْ مَحَاوِرَةٍ سَبْعٍ لَثُورٍ ، فَيَنْصَرِفُ بِذَلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ وَيَكُونُ مِثْلَهُ مِثْلَ الصَّيَادِ الَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ الْخُلُجِ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ فِي زُورَقٍ . فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَمِيقِ الْمَاءِ صَدْفَةً تَتَلَأَلُ حَسَنًا فَتَوَهَّجَ بِهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيَمَةٌ . وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَتَهُ فِي الْبَحْرِ فَاسْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قَوْتُ يَوْمِهِ ، فَجَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدْفَةَ . فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا بِمَا ظَنَّ . فَتَدَمَّرَ عَلَى تَرْكِهَا فِي يَدِهِ ، لِلطَّمَعِ ، وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي تَنَجَّيَ عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَالْقَى شَبَكَتَهُ فَاصْطَابَ حَوْتَأً صَغِيرًا وَرَأَى أَيْضًا صَدْفَةً سَدِيدَةً فَلَمْ يَلْتَمِثْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَاجْتَازَ بِهَا بَعْضُ الصَّيَادِينَ فَاحْضَرَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تَسَاوِي أَمْوَالًا

.... وينبغي للناظر في هذا الكتاب ان يعلم انه ينقسم الى اربعة اغراض :
احدها ما قُصِدَ فيه الى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة من مُسارعة
اهل الهزل من الشبان الى قراءته فيستميل به قلوبهم ، لان هذا هو الغرض
بالتوارد من حيل الحيوانات .

والثاني اظهار خيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ والالوان ليكون أنساً
لقلوب الملوك ويكون حرصهم عليه أشدَّ للنزهة في تلك الصور .

والثالث ان يكون على هذه الصفة فيتخذ الملوك والسوقة فيكثرُ بذلك
انتساخه ولا يبطل ، فيخَلَقَ على مرور الايام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ ابدًا
والغرض الرابع ، وهو الاقصى ، مخصوص بالفيلسوف خاصة .

باب الاسد والثور

وهو اول الكتاب

قال دَبْشَلِيمُ المَلِكُ لبَيْدَا الفيلسوف - وهو رأسُ البَراهمة : اضربْ لي
مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذبُ المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء .
قال بَيْدَا : إذا ابتليَ المتحابتان بان يدخل بينهما الكذبُ المحتال لم يلبثا ان
يتقاطعا ويتدابرا ، وآفة المودة النميمة . ومن امثال ذلك انه كان بارض دَسْتَاوَنَد
رجلٌ شيخ له ثلاثة بنين ، فلما بلغوا أشدهم اسرفوا في مال ابيهم - ولم يكونوا
احترفوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ بها لانفسهم خيراً - فلامهم ابوهم (ووعظهم) على سوء
فِعْلِهِمْ . وكان من قوله لهم : يا بني ، ان صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن
يدركها الا باربعة . اما الثلاثة التي يطلبُ فالسَّعة في الرزق والمنزلة في الناس
والزاد للآخرة . واما الاربعة التي يحتاج اليها في دَرَك هذه الثلاثة فاكْتِسَاب
المال من احسن وجه يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ، ثم استثماره ،
ثم انفاقه (في ما) يُصلح المعيشة ويُرضي الاهل والايوان فيعودُ عليه نفعه في

الآخرة . فمن ضيَّع شيئاً من هذه الاحوال لم يدرك ما اراد من حاجته ، لانه إن لم يكتسب لم يكن له مالٌ يعيش به ، وان هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يُحسِّن القيام عليه أو شكَّ المال ان يفنى ويبقى (هو) مُعَدِّماً . وان هو وضعه ولم يستثمره لم تمنعه قلة الانفاق من سرعة الدَّهَاب ، كالكل الذي لا يؤخذ منه إلا عِبار المِل ثم هو مع ذلك سريعٌ فناؤه . وان هو انفق في غير وجهه ووضعه في غير موضعه وخطأ به مواضع استحقاقه صار بمنزلة الفقير الذي لا مال له ثم لم يمنع ذلك ايضاً ماله من التلف بالحوادث والعلل التي تجري عليه ، كحسب الماء الذي لا تزال المياه تنصب فيه ، فان لم يكن له مخرج ومتنفِّس يخرج منه الماء بقدر ما ينبغي خرب وسال ونز ، وربما انبثق البَشَق العظيم فذهب الماء ضياعاً .

وإنَّ بنيَّ الشبخ اعطوا بقول ابيهم واخذوا به وعلموا ان فيه الخير وعولوا عليه . فانطلق اكبرهم نحو ارض يقال لها مَبُون ، فاتى في طريقه على مكان فيه وحل كثير . وكان معه عجلة يجرها ثور ان يقال لاحدهما شَتْرَبَة وللآخر بَنْدَبَة . فوحل شَتْرَبَة في ذلك المكان فعالجه الرجل واصحابه حتى بلغ منهم الجهد فلم يقدرُوا على اخراجه ، فذهب الرجل وخلف عنده رجلاً يشارفه لعلَّ الوحل ينشف فيتبعه به .

فلما بات الرجل بذلك المكان تبرَّم به واستوحش ، فتروك الثور والتحق بصاحبه فاخبره بان الثور قد مات . وقال له ان الانسان اذا انقضت مدته وحانت منيته ، فهو وان اجتهد في التوقي من الامور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن عنه شيئاً . وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وبالأعلى عليه كالذي قيل إن رجلاً سلك مفازة فيها خوف من السباع - وكان الرجل خبيراً بوعث تلك الارض وخوفها .

فلما سار (الرجل) غير بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضراها . فلما رأى الرجل ان الذئب قاصدٌ نحوه خاف منه ونظر ميمناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرَّز فيه من الذئب فلم ير الا قرية خلف وادٍ ، فذهب مُسرِعاً نحو القرية . فلما اتى الوادي لم ير عليه قنطرة ، ورأى الذئب قد ادركه ، فالقى نفسه في

الماء - وهو لا يُحْسِنُ السباحة - فكاد يغرق لولا ان بَصُرَ به قوم من اهل القرية فتواقعوا لالخراجه فاخرجوه وقد اشرف على الهلاك .

فلما حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة الذئب رأى على عدوة الوادي بيتاً مفرداً فقال : ادخل هذا البيت فاستريح فيه . فلما دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله . فلما رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية فاستند ظهره الى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء اذ سقط عليه الحائط فمات . قال الرجل صدقت ، قد سمعت هذا الحديث .

*

واما الثور فانه خلص من مكانه وانبعث ، فلم يزل في مرجٍ مُخَصَّب كثير الماء والكلأ . فلما سمع وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالحوار . وكان قريباً منه أجمة فيها اسد عظيم ، وهو ملك تلك الناحية ، ومعه سبع كثيرة وذئاب وبنات آوى وثعالب وفهود وغور .

وكان هذا الاسد مفرداً برأيه دون أخذٍ برأي احد من اصحابه ، فلما سمع خواره خامره منه هبةٌ وخشية ، وكره ان يشعر بذلك جنده . فكان لا يبرح ولا ينشط بل يؤتى برزقه كل يوم على يد جنده .

وكان في من معه من السباع ابنا آوى ، يقال لاحدهما كليلة والآخر دمنة ، وكانا ذَوِي دهاء وعلم وادب . فقال دمنة يوماً لاخيه كليلة : يا اخي ، ما شأن الاسد مُقِمّاً مكانه لا يبرح ولا ينشط خلافاً لعادته ؟ فقال له كليلة : ما شأنك أنت والمسألة عن هذا ؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما احب وتاركين ما يكره ، ولنا من اهل المرتبة التي يتناول اهلها كلام الملوك والنظر في امورهم . فأمسك عن هذا واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شكله أصابه ما اصاب القرد من النجار .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليله : زعموا ان قرناً رأى نجاراً يشق خشبة وهو راكبٌ عليها . وكلما شق منها ذراعاً أدخل فيها وتدّاً . فوقف ينظر اليه وقد اعجبه ذلك . ثم ان النجار ذهب لبعض شأنه فقام القرد وتسكف ما ليس من شأنه : فركب الخشبة وجعل وجهه قبل التود وظهره قبل طرف الخشبة . فتدلى ذنبه في الشق ، ونزع التود فلزم الشق عليه ، فكاد يغشى عليه من الالم . ثم ان النجار وافاه فاصابه على تلك الحالة فاقبل عليه يضربه . فكان ما لقي من النجار اشدّ مما اصابه من الخشبة .

قال دمنة : قد سمعتُ ما ذكرت . وليس كل من يدنو من الملوك يقدرُ على صعبتهم ويفوز بقربهم . ولكن اعلم ان كل من يدنو منهم ليس يدنو منهم لبطنه ، فان البطن يحشى بكل شيء . وانما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت العدو . وان من الناس من لا مروءة له ، وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون ، كالكلب الذي يُصيب عظماً يابساً فيفرح . واما اهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل ولا يرضون به دون ان تسمو بهم نفوسهم الى ما هم اهلٌ له وهو ايضاً لهم اهل ، كالاسد الذي يفتوس الارنب ، فاذا رأى البعير تركها وطلب البعير . ألا ترى ان الكلب يبصص بذنبه حتى ترمي له الكيسرة من الخبز فيفرح بها وتقنعه منك ، وان الفيل المعترف بفضله وقوّته اذا قدم اليه علفه لا يعتلفه حتى يمسح وجهه ويتملق له . فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على نفسه واهله واخوانه ، غير خامل المنزل ، فهو وان قلَّ عمره طويل العمر . ومن كان في عيشة ضيق وقلة وإمساك على نفسه وذويه وكان خامل المنزل فالمقبور أحيا منه . ومن عمل لبطنه وشهواته وقنع وترك ما سوى ذلك عدّ من البهائم .

قال كليله : قد فهمت ما قلت فراجع عقلك واعلم ان لكل انسان منزلةً وقدرًا ، فان كان في منزلته التي هو فيها متمسكاً كان حقيقاً ان يقنع ، وليس لنا من المنزل ما نخط به حالنا التي نحن عليها (?) . ثم ان منزلة الانسان مقدورة عليه منذ الازل فلا سبيل له الا الرضى بها كيف كانت .

قال دمنة : ان المنازل مُتنازعة مُشتركة على قدر المروءة . فالمرء ترفعه مروءته

من المنزلة الوضيعة الى المنزلة الرفيعة . ومن لامروءة له يحط نفسه الرفيعة الى المنزلة الوضيعة . وان الارتفاع الى المنزلة الشريفة شديد والانحطاط منها هين ، كالحجر الثقيل رفعه من الارض الى العاتق عسيرٌ ووضعهُ الى الارض هين . فنحن احق ان نروم ما فوقنا من المنازل وان نلتمس ذلك بمرءتنا . ثم كيف نقنع بمنزلتنا ونحن نستطيع التحول عنها .

قال كليّة : فما الذي اجتمع عليه رأيك ؟

قال دمنة : أريد ان أتعرّض للاسد عند هذه الفرصة لانه قد ظهر لي ان ضعيف الرأي قد التبس عليه أمره وعلى جنده ايضاً . ولعلي على هذه الحال ادنو منه فأصيبَ عنده منزلة ومكانة فيبتدري بالكلام ، فاجيبه بما تقدحهُ القريحة لعلها تُلتمجُ بيننا نتيجةً تؤدّي الى إظهار أمر مكتوم .

قال كليّة : وما يدريك ان الاسد قد التبس عليه أمره ؟ قال دمنة : بالحسّ والرأي اعلم ذلك منه ، فان الرجل ذا الرأي يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دله وشكله . قال كليّة : فكيف ترجو المنزلة عند الاسد ولست بصاحب السلطان ولا لك علم بخدمة السلاطين وآدابهم وآداب مجالسهم ؟ قال دمنة : ان الرجل الشديد القوي لا ينوء به الحمل الثقيل وان لم تكن عادته الحمل ، والرجل الضعيف لا يستقل به وان كان ذلك من صناعته . قال كليّة : فان السلطان لا يتوخى بكرامته فضلاء من بحضرته ، ولكنه يُؤثر الادنى ومن قرُب منه . قال دمنة : يقال ان مثل السلطان في اثاره الافضل دون الادنى مثلُ شجر الكرم الذي لا يعلق الا باكرم الشجر . قال كليّة : وكيف ترجو المنزلة عند الاسد ولم تكن دنوت منه من قبل .

قال دمنة : قد فهمت كلامك جميعه وتدبّرت ما قلت ، وانت صادق . لكن اعلم ان الذين لهم المنازل الرفيعة عند الملوك قد كانوا قبل ان يرقّوا اليها ليست بحالتهم فيقرّبون بعد البعد ويُدنّون بعد التناهي . وأنا ملتمسٌ بلوغ مكانتهم بجهدٍ . وقد قيل : لا يواظب على باب السلطان الا من يطرح الأنفة ويحملُ الاذى ويكظمُ الغيظ ويوفقُ بالناس ويكتمُ السر ، فاذا وصل الى ذلك فقد بلغ

مرادة . قال كليله : هبك وصلت الى الاسد ، فما توفيقك عنده الذي ترجو ان تنال من المنزلة عنده والخطوة لديه ؟ قال دمنة : لو دنوت منه وعرفت أخلاقه لرفقت في متابعته وقلة الخلاف له . واذا اراد امرأ هو في نفسه صواب زينته له وصبرته عليه وعرفته بما فيه من النفع والخير ، وشجعتة عليه وعلى الوصول اليه حتى يزداد به مروراً . واذا اراد امرأ يخاف عليه ضرره وشينه بصبرته بما فيه من الضرر والشين واطلعتة على ما تركه من النفع والزين بحسب ما اجد اليه السبيل . وانا ارجو ان ازداد بذلك عند الاسد مكانة ، ويرى مني ما لا يراه من غيري . فان الرجل الاديب الرفيق لو شاء ان يُبطل حقاً او يحقّ باطلاً لفعل ، كالمصور الماهر الذي يصور في الحيطان صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة ، واخرى كأنها داخلة وليست بداخلة . فاذا هو عرف ما عندي وبان له حسن رأيي وجودة فكري التمس اكرامي وقربني اليه .

المال : الغني والفقر

من باب الحمامة المطوقة

فقلت في نفسي : ما الاخوان ولا الاعوان ولا الاصدقاء الا بالمال . ووجدت من لا مال له اذا اراد امرأ قعد به العدم عما يريده ، كالماء يبقى في الاودية من مطر الشتاء لا يمر الى نهر ولا يجري الى مكان الى ان يفسد وينشف ولا ينتفع به .

ووجدت من لا اخوان له لا اهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة له . لان من نزل به الفقر لا يجد بداً من ترك الحياة . ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره مقت نفسه ، ومن مقت نفسه كثر حزنه ، ومن كثر حزنه قل عقله وارتبك في امره ، ومن قل عقله كان

أكثر قوله وعمله عليه لاله . ومن كان كذلك فأُحر به ان يكون انكد الناس حظاً في الدنيا والآخرة .

ثم ان الرجل اذا افتقر قطعة اقاربه وإخوانه واهل رُوده ورفضوه واهانوه ، واضطره ذلك الى ان يلتمس من الرزق ما يغرر فيه بنفسه ويفسد فيه آخرته فيخسر الدارين جميعاً . وان الشجرة النابتة في السباخ المأكولة من كل جانب كحال الفقير المحتاج الى ما في ايدي الناس .

ووجدت الفقر رأس كل بلاء وجالباً الى صاحبه كل مقت ، ومعدن النسيمة . ووجدت الرجل اذا افتقر اثمه من كان له مؤتمناً ، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فان أذنب غيره كان هو موضعاً للتهمة .

وليس من حلة هي للغي مدح الا وهي للفقير ذم : فان كان شجاعاً قيل أهوج ، وان كان جواداً سمي مبدراً ، وان كان حليماً سمي ضعيفاً ، وان كان وفوراً سمي بليداً ، وان كان صموتاً سمي عيياً ، وان كان لسيناً سمي مهذاراً . فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها الى المسألة ، ولا سيما مسألة الاشعثاء اللثام . فان الكريم لو كُلف ان يدخل يده في فم الاعمى فيخرج منه سماً قبيئاً لكان ذلك أهون عليه واحب اليه من مسألة البخيل ، حتى لقد جاء في قديم الاقوال ان من ابتلي بمرض في جسده لا يفارقه حتى يتسلط عليه ما هو اشد منه ، من الحاجة والفقر !

IN 1848

THE 1. MAGAZINE

THE 1. MAGAZINE

THE 1. MAGAZINE

THE 1. MAGAZINE



THE 1. MAGAZINE

THE 1. MAGAZINE

THE 1. MAGAZINE

IN ARABIC

Ibn ul-Muqaffa^c

THE ORIGINATOR OF THE LITERARY STYLE IN ARABIC

By

Dr. Phil. Omar A. Farronkh

MEMBER OF THE ARABIC ACADEMY, DAMASCUS;

MEMBER OF THE ISLAMIC RESEARCH ASSOCIATION, BOMBAY.

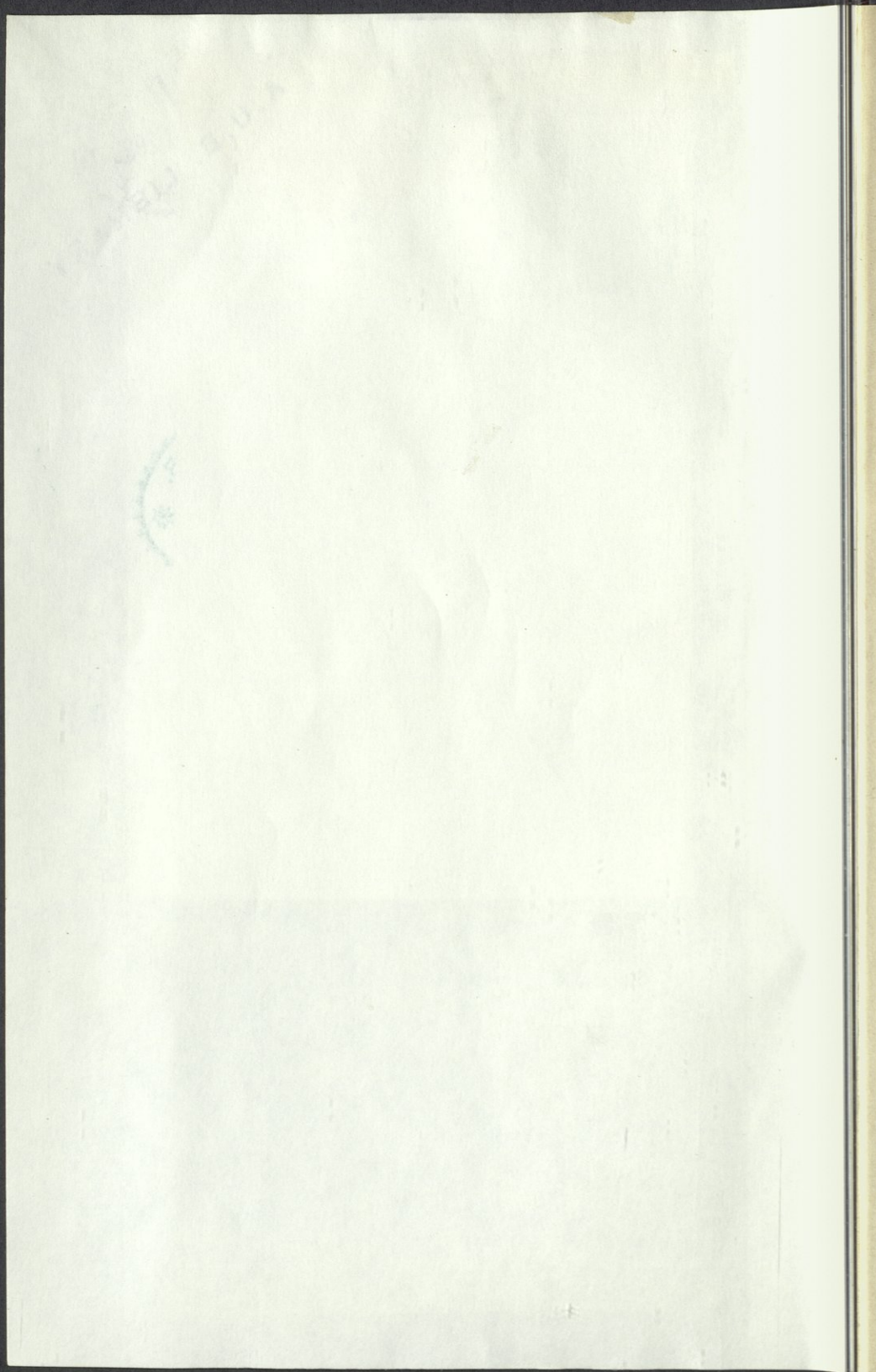


Second Edition

BEIRUT 1949

Imp. Hassani

مطابع الحسني



DATE DUE



RARY

A.U.B. LIBRARY

892-784971Y1a2A:c

فروخ، عمر
عبد الله بن المفضل وكتاب كلية ودمنة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01042455

892-78

784971Y1a2A

